الفلسطينيون يكررون خطأهم التاريخي

الدكتور عبد الستار قاسم

للمرة الخامسة والعشرين يكرر الفلسطينيون ذات الخطأ وذلك منذ بدء المواجهة الفلسطينية للانتداب البريطاني والحركة الصهيونية ولإسرائيل بعد ذلك. يقومون في كل مرة يواجهون ويقاومون من أجل إنقاذ وطنهم أو تحريره أو انتزاع بعض الحقوق، ويسقط منهم الشهداء والجرحى ويحل الدمار والعذاب وتشتد المعاناة والآلام، ولكنهم في النهاية يقررون التوقف والإخلاد إلى السكينة على أمل أن تُنفذ وعود يطلقها زعماؤهم أو أعداؤهم. يهدأ الناس منتظرين فرجا، لكن الفرج يبتعد ويبدو في كل مرة أكثر بعدا من المرة التي سبقت. قوافل الشهداء تمضي، وشوارع فلسطينية تزدحم بمزيد من المعاقين واليتامى والمشردين، ودموع تبقى منهمرة لا يعرف الجفاف إليها سبيلا، وعدو يذكرنا كل مرة بما يسميه رعونتنا التي تدفعنا إلى أعمال جنونية لا يكون حصادها إلا الفشل.

مشهد مأساوي يتكرر مرة كل عدة سنوات، ومعه تتكرر ذات النتائج. لم أُخْفِ هذه الحقيقة التاريخية المؤلمة في مقالاتي العديدة التي كتبتها على صفحات جريدة الخليج، وكان توجسي واضحا على مر الأيام والشهور. لم تتغير المعادلة القيادية على الساحة الفلسطينية ولم تتغير التركيبات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بصورة جذرية تستدعي التفكير بمسار جديد. كان واضحا منذ البدء أن الانتفاضة لا جدوى منها إن لم تتحول إلى مقاومة، وأنها لا مفر ستفوز بأعداء كثر إن تحولت إلى مقاومة وسيتم التآمر عليها وضربها. وكان من الواضح أيضا أن تطور الفكر السياسي والوعي العملي في فلسطين لم يرتق إلى الدرجة التي تجعل الوصول إلى هذه النتيجة صعب المنال. حتى أن الوضع الفلسطيني كما هو الحال في الدول العربية لا يخلو من المراهقة الفكرية والسذاجة السياسية. ولهذا لم تجد فصائل فلسطينية إسلامية وقومية ورافضة للمشاريع السياسية حرجا في العمل تحت قيادة مطبعين مع إسرائيل والتنسيق مع من ينسقون أمنيا مع إسرائيل. تغلبت لدى هذه القوى الفلسطينية نزعة السذاجة العشائرية على التجربة التاريخية.

قبل الاسترسال تجدر الإشارة إلى أن المقاومة المتولدة عن هذه الانتفاضة هي الأقوى في التاريخ الفلسطيني ووضعت إسرائيل أمام واقع مؤلم لم تشهد شبيها له إلا في الأيام الأولى من حرب تشرين/ أكتوبر. تدهور الوضع الأمني والمعنوي لإسرائيل وبدأ يهود يرحلون عن فلسطين هربا وأصيب الاقتصاد بضربات قاسية. لقد زُجت إسرائيل في زاوية حرجة جدا إزاء العمليات الاستشهادية وظهرت هشاشة قدرتها على التحمل والصمود. وإذا تبينا إحصائيا خسائر الجانبين في النفوس نجد أن نسبة خسائر اليهود في النفوس إلى خسائر الشعب الفلسطيني تصل إلى حوالي 25 %، وهي أعلى بكثير من أعلى نسبة في انتفاضات سابقة. تميزت المقاومة هذه المرة بنوع من النضوج القتالي وبشجاعة كبيرة وحافظت على درجة مقبولة من السرية. لقد وضعت إسرائيل في مأزق اضطرت معه أن تستنجد بأمريكا وقادة عرب وفلسطينيين. لا شك أن الثمن الذي دفعه الشعب الفلسطيني باهظ، لكن دفع الثمن طمعا في الوصول إلى نتائج أفضل بكثير من دفع ثمن تقسيطا وبدون مقابل. لكن دوران العجلة يتهادى ويبدو أن الطبع يتغلب على عنفوان الشباب.

حسب منطق الأزمات أو الظروف غير الاعتيادية كان من المتوقع إجراء تغييرات على الساحة الفلسطينية حتى لو بقيت الانتفاضة انتفاضة حجارة ومظاهرات ولم تتطور إلى أي نوع من أعمال المقاومة. الانتفاضة مكلفة بشريا وماديا وتتطلب إعادة ترتيب الأوضاع المختلفة وعلى

رأسها الموارد وتوزيعها بطريقة تكفي الشعب الفلسطيني وتلبي تحديات الضغوط الاقتصادية والمالية والإنتاجية. مضت الانتفاضة وانحسرت لصالح المقاومة إلا أن تغييرات سياسية واقتصادية واجتماعية وأمنية لم تحصل ولم يتم تطوير برامج تدفع بهذا الاتجاه وبقيت الانتفاضة خارج البيئة المتناسبة مع متطلباتها. كان في هذا مؤشر صارخ إلى أن المستوى القيادي ينظر إلى الانتفاضة على أنها أداة تحريكية مؤقتة وليست آلية استراتيجية لنقل الصراع نحو الحرية نقلة تاريخية جديدة. أضف إلى ذلك أن التنسيق الأمني مع إسرائيل لم يتوقف، ولم تتوقف معه محاولات العودة إلى طاولة المفاوضات وإلى حيث توقفت المحادثات في 28/9/2000.

كان من الواضح عبر شهور الانتفاضة أن السمة التاريخية للجدل بين الشعب الفلسطيني وقيادته هي السائدة من حيث أن الشعب يملك الدافع نحو مواجهة العدو وتطوير مقاومة فعالة وأن القيادة تتمسك برؤيتها السياسية المتخلفة جدا عن التطلعات الشعبية. الانفصام التاريخي بين القيادة والشعب بقي قائما خلال هذه الانتفاضة وبقي الشعب متفوقا على قيادته. يندفع الشعب إلى الأمام برغبة بالتضحية بهدف التحرير، والقيادة تضع أمامه العراقيل وتجره كرها إلى الخلف. لم يكن من المتوقع إلا أن تتخذ القيادة الإجراءات التي تضمن لها الاستمرار دون منازعة أو تهديد من قبل الشعب. ولم تكن التصريحات الإسرائيلية والإجراءات التي تم اتخاذها في الآونة الأخيرة إلا جزءا من المساعدة في تحجيم الطموح الشعبي لحساب قوى المهادنة والتي تتزعمها دائما القيادة الفلسطينية. لم يكن في نوايا إسرائيل إزالة السلطة الفلسطينية ولا طرد القيادة ذلك لأن سلطة الحكم الذاتي كما هي عليه عبارة عن مطلب إسرائيلي منذ عام 1967 ولأن القيادة لا يمكن استبدالها قبل تجهيز البديل. لقد أعانت إسرائيل القيادة على بلورة التبريرات التي أدت إلى اتخاذ إجراءات ضد المقاومين باسم المصلحة الوطنية الفلسطينية.

لم تكن التبريرات على درجة من الذكاء ولا احترمت عقول عامة الناس. قالت السلطة أن إسرائيل قوية وتملك آلة حربية ضخمة وحديثة وكأن في ذلك شيئا جديدا لم تعرفه الأمة من قبل. إسرائيل متفوقة عسكريا على العرب منذ قيامها وليس من العبقرية أن يذكّر أحد الناس بهذه الحقيقة. لكن الفكرة المنطوية وراء هذا التذكير هو تفضيل الخنوع على ابتكار الوسائل الكفيلة بالتحايل على هذا التفوق. وحاولت السلطة تجاوز تسلط إسرائيل وهيمنتها بقولها أنها لا تقبل تحديا لوحدانية سلطتها في مناطق الحكم الذاتي. كل هذا القصف الصهيوني وتوغل الدبابات الإسرائيلية في مناطق الحكم الذاتي لم يقنع السلطة أن لا سلطة لها إلا تحت سلطة إسرائيل. لكن الفكرة ليست من أجل تكريس سلطة السلطة وإنما من أجل ضرب سلطة المقاومة ضد إسرائيل. أما فكرة المحافظة على الوحدة الوطنية في ظل ملاحقة المجاهدين واعتقالهم وإقفال مؤسسات يصعب أن يعلوها زيف وتلاعب بما هو عزيز في نفوس الجماهير.

وبعد كل هذا يطلع علينا مسؤول فلسطيني يقول أن الإجراءات التي يتم اتخاذها عبارة عن إجراءات فلسطينية داخلية مستقلة لا علاقة لإسرائيل وأمريكا بها. في هذا يتمم المسؤول السلوك القيادي الذي اعتاد الشعب عليه على مدى ثمانين عاما. اختار الشعب على مدى السنين مقاومة الانتداب والاحتلال وقدم التضحيات، وبدا أن القيادة تشجعه على ذلك ما دامت الضحايا من أبناء فلسطين، أما عندما يسقط ضحايا من الطرف الآخر ويبدأ بتهديد مصالح القيادات فإن ظهر المجنّ ينقلب. ولهذا أخذنا نسمع من مسؤولين فلسطينيين ندمهم على عدم تعاملهم بجدّ ضد تحويل الانتفاضة إلى مقاومة، وأخذوا من خلال وسائل الإعلام تصوير الإجراءات الإسرائيلية على أنها ضد السلطة متجاهلين المجاهدين والمقاومين كهدف. ومن المعروف أن ضحايا الانتفاضة هم من أبناء الشعب الفلسطيني بخاصة من الأطفال الذين يملكون الجرأة على الاقتراب بحجر من العدو.

نظرا للتضارب التاريخي بين الموقفين الشعبي والرسمي بقي الشعب الفلسطيني في حالة تأرجح بين المقاومة والمهادنة. لم تتواصل المقاومة فذهبت التضحيات بدون إنجاز، والمهادنة لم تأت إلا بمزيد من القهر والإذلال إلى درجة أن بعض أبنائه باتوا يعتقلون إخوانهم دفاعا عن الأمن الإسرائيلي. لا تختلف هذه المرحلة عن تلك التي سبقت، وما هو مطلوب من السلطة الفلسطينية الآن أمريكيا وإسرائيليا من مواجهة للشعب أكثر حدة وأشد مما كان مطلوبا سابقا. وهذه المرحلة تتشابه أيضا مع ما سبقها في أن القيادة تفضل الذل على الرحيل.

المشكلة ليست فقط في القيادة الرسمية وإنما أيضا في قيادات الفصائل والتنظيمات. إذا كانت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية قد سارت في طريق حرّمه دستورها فإن فصائل كثيرة اعتمدت الانتقادات من خلال البيانات واللحاق عمليا بالتنازلات مع الإبقاء على تلك المسافة البسيطة بينها وبين قيادة عرفات. هذا يشمل الفصائل ذات العضوية في منظمة التحرير وتلك التي كانت. فصائل اعتبرت اتفاق أوسلو خيانة وجدت نفسها ضمنه مع الزمن مثل الجبهات الماركسية، وأخرى لم تأل جهدا في انتقاد عرفات ومعاونيه وجدوا أنفسهم يعملون تحت قيادته مثل الفصائل القومية المتواجدة في دمشق.

أما بالنسبة للفصائل الإسلامية فمن المتوقع أن يبقى الجهاد الإسلامي ضمن نظرته الجهادية، وأن تبقى حماس ضمن النظرة التقليدية لحركة الإخوان المسلمين تجاه التحديات. يغلب على الإخوان فكر المهادنة ويميلون إلى فكرة الممكن وليس الإصرار عليه بخاصة أنهم يركزون على العمل الجماهيري والمؤسسات العامة. ولهذا كان من المتوقع أن تجنح حماس نحو التهدئة تحت تبرير تجنب الفتنة كما فعلت سابقا. الإطار التنظيمي والإداري لحماس غير مؤهل بسبب علانيته لأن يضحي بنفسه لصالح المقاومة.